هوية امرأة (*)

لا بد من النهاية، من قرار حاسم لإنهاء هذه الحياة. كنت مشغولة الفكر، شاردة، وأنا أقود سيارتي في اتجاه بيت الأسرة. الأفكار تلاحقني، تتحدث بصوت عال، القرار ليس سهلاً، لم يكن هناك حل آخر، فالوعود لا تُغيِّر شيئاً، كلها تنتهي نهاية واحدة، إنها مضيعة للوقت وفخ لاستمرار الحياة بلا داع.

كان أنانياً، أراد أن يكون محور الحياة وأن أدور في فلكه، أخبرته دوماً أنني امرأة لا تتجزأ، إما أن يقبلني كما أنا، وإما أن يتركني كما أحبني وأحببته، تَدخَّل في كل شيء في حياتي؛ عملي، أكلي، أصدقائي، ملابسي، تسريحة شعري، الموسيقى التي أحبها، الألوان التي أعشقها، بل إنه كان يكره أقرب الألوان إلى قلبي، بدأت أتجاهله كنوع من الهروب، كان يحاول تهميشي، وحياة الهامش لا تستهويني، لست امرأة مسيطرة، أبداً، لكنني صاحبة قرار.

بدأت الأشياء تفقد ألوانها ومعالمها، تسربت البرودة إلى حياتنا،

(*) حصلت على الجائزة الأولى من جمعية الكاتبات المصريات للعام ٢٠٠٣م.

فقدنا دفء الحب، كانت بداية النهاية، لم يعد بيننا قاسم مشترك، تساءلت: لماذا تحاول أن تلغيني ؟

بكيت، لم أتمالك نفسي هذه المرة، عندما شاهد دموعي تعجب، ردد ساخراً: أخيراً بكى تمثال الجليد ! . . . . . تحسست جسدي، شعرت ببرودته، أكد لي أنني السبب الأول والأخير في تدهور هذه العلاقة، لم أتقبل اللوم، كان يقلب الحقائق رأساً على عقب، لاحقته بنظراتي، التقت عيوننا، كانت باردة، أدركت أن الحب الكبير الذي كان يسكننا قد رحل، رحل بلا عودة، ألقيت عليه اللوم، أنت وحدك من دفعني بل دفعنا نحو هذا، أنت من بدأ النهاية، تلاشت الأشياء المشتركة بيننا، صرنا كائنين بعيدين كل البعد عن الآخر، نتخاطب بالكاد، نفضل دوماً أن نكون في صحبة الأصدقاء، أما نحن معاً، فنجلس بلا حوار وبلا اتصال.

لم أعد أعرف كيف يراني، جسداً بلا روح، يمكن تغيير ملامحه وهويته، أم روحاً وعقلاً وكياناً وفكراً محاطاً بجسد. إن الحياة معه عطاء من جانب واحد، والعطاء المتبادل في الحب سر البقاء، لقد فقدنا أغلى ما يربطنا معاً، صار استمرار الحياة مسرحية كوميدية مضحكة، يصفق لها الناس وهم لا يعرفون أن الأبطال يبكون حتى الثمالة من شدة الألم.

نزعت القيد الذهبي عن إصبعي، ألقيت به أمامه، رن صوته على الطاولة الزجاجية الأنيقة، سمعت صوت الرنين كأنه ضحكات عالية تسخر من عمري الذي مضى. غادرت المنزل، لم يلحق بي، يعرف أن قراراتي حاسمة لا تتغير بسهولة.

كان الطريق طويلاً، سلكت أبعد الطرق وأكثرها ازدحاماً، كان صوت الكاسيت عالياً، لكنني لا أسمع شيئاً، فالصوت بلا كلمات، والكلمات بلا معنى، والنغم ممل رتيب.

نظرت إلى نفسي في المرآة، توسلت إليها أن لا تبكي، عدلت شعري، تذكرت صديقتي الغالية حتى أسلي نفسي، جمع الحب الكبير بينها وبين زوجها، أنجبت ولداً، كان لزوجها صديقة في العمل، "ليز" ما زلت أذكرها، كانت تزورهما دوماً، وصديقتي الغالية لا تمانع من هذه الزيارات المتكررة، فثقتها في نفسها وزوجها تصل إلى أبعد الحدود، في عيد ميلاد ابن صديقتي الغالية، أهدت إليه " ليز " كلباً غالي الثمن من نوع نادر، تعلق به الصغير كثيراً، أصبح الكلب يلازمه في كل مكان يذهب إليه، وتناست صديقتي أن كل شيء لابد له من مقابل، خصوصاً الهدايا النادرة، ولقد حصلت " ليز" على المقابل، أخذت الزوج ورحلت، وبمنتهى البساطة حصلت صديقتي

علـى الطلاق والكلب النادر ، كانت صديقتي تكره الكلب ، فرغم أنه لا ذنب له ، إلا أنه كان يُذكِّرها بليز .

رحل الزوج ، ومن أجل عيون الصغير ، بقى لليز أذيال في البيت . بعـد فـترة تـزوجت صديقتي الغالية ، وصار الصغير يحمل الكلب بين ذراعيه ، مرة في بيت أمه ، وتارة في بيت " ليز " .

نظـرتُ إلى المـرآة مـرة أخرى ، تأملت ملامحي ، لـم أخسر كثيراً ، خسـرت رجـلاً كـل مـا قدمه لي طوق ذهبي أنيق وقطعة ماس وشقة فاخـرة ، عطـاء مادي بحت ، يتأرجح بين الصعود والهبوط ، كان لابد لهـذه القـيود أن تنكسـر وتتحطم ، فالمادة لا تأسر عقلاً حراً ولا تمتلك شخصية تتسم بالثبات .

خسـرتُ حـباً أسرني ، ولكنني كسبت نفسي ، استعادت روحي حـريتها الـتي كـادت تُسـلب منها ، خسرت زواجي ، ولكنني كسبت هويتي كامرأة .

عـدتُ إلى بيت أبي وأمي ، كان الجميع يسأل عن تفسير ، فالقرار مفاجئ بالنسبة لهم ، كنتُ متعبة ، طلبت فرصة ، احترموا رغبتي .

دخلـت غـرفتي ، بكيتُ كثيراً ، دموعي لا تريد أن تتوقف ، يجب أن أكـون قـوية متماسـكة ، مُصـرة علـى رأيي ، وأن أُقدِّم أسباباً كافية

ومقنعة، فأنا لا أحب الجدل رغم أنني سألقاه.

اليوم كان قراري وأعرف أنه لابد من رد فعل، عرفت أمراً آخر، أعتقد بأنني لن أقبل في البيت كلباً لا أرغب في وجوده، فأنا ما زلت بلا أطفال.